رحيل بعدما سئم الشيخوخة التي تمنعه من السفر الأحبّ إلى قلبه، انطفأ الروائي في هدأة بيته في شوازيل في ضاحية باريس. اختيار حياة العزلة يشبه إلى حد بعيد أدب الرجل الذي اختار صوتاً مخالفاً للسائد. أي أن يكون على الهامش، وفي قلب الأدب!

مات ميشال تورنييه... «خيميائي» الرواية الفرنسية

باريس - **محمد الخضيري**

أحد أبرز الكتاب الفرنسيين في النصف الثاني من القرن العشرين، وصل ميشال تورنييه (1924 - 2016) متأخراً إلى أرض الكتابة. في عام 1967، أصدر باكورته الروائية «جمعة» vendredi ou Les limbes du Pacifique، وهو يبلغ 43 سنة. الكتاب الذي استلهم فيه رواية دانيال ديفو الشهيرة «روبنسون كروزو»، استقبل بحفاوة نقدية وجماهيرية، جاعلاً مؤلّفه كاتباً شعبياً ومتوّجاً إياه بالجائزة الكبرى للرواية من الأكاديمية الفرنسية. لاحقاً، سيعيد تأليف الكتاب في صيغة موجّهة للقراء الصغار. تحت عنوان «جمعة أو الحياة البرية»، وجد العمل طريقه إلى المناهج التعليمية في فرنسا وفي بلدان أخرى ناطقة بلغة موليير. وحتى نهاية حياته، كان تورنييه من الذين تذكر أسماؤهم في الأوساط الثقافية الفرنسية، كأحد الأدباء المفضلين للحصول على جائزة «نوبل» للآداب.

> أحد أبرز الكتاب الفرنسيين في النصف الثاني من القرن العشرين

رغم هذا الحضور الوازن في المشهد الثقافي الفرنسي، فإن تورنييه كان مقلاً. بتسع روايات وبعض القصص فقط، استطاع فرض نفسه على الساحة منذ السبعينات من القرن الماضي بوصفه أسلوبياً، وخيميائياً يهوى خلط الأساطير والتاريخ، العادي والخارق، وصانع عوالم أسطورية، سحرت الكبار والصغار على السواء. أسلوبية قال مرة إنّه اكتسبها من المعلمين الكبار من قبيل «مُعلمه» فلوبير. صيغة الكتابة لدى تورنييه تنبع إذاً من عنصرين: الاشتغال على النص بدقّة الحرفي، لكن قبلها ضرورة الغوص في أشياء الواقع وملامستها قبل كتابتها، كما حدث معه في عام 1985 حين أراد كتابة رواية «قطرة الذهب».

ربما، هذه الصرامة تجاه الكتابة، هي ما جعل تورنييه ينتظر طويلاً قبل الانطلاق في تجربة أدبية. بعد طفولة باريسية حزينة، كما وصفها في إحدى مقابلاته الصحافية، اختبر تجربة الحرب العالمية الثانية والاحتلال النازي لفرنسا ثم تحريرها.

لحظات من التاريخ عايشها منذ بداياتها في الثلاثينات من القرن الماضي مع صعود النازية، إذ كان يقضي عطله كلها مع والديه في ألمانيا، وكان يلاحظ هذا الصعود الملتهب لفكرة التفوق الألماني.

بعيدا عن الوجه الكالح لألمانيا تلك المرحلة، فإنّ اللغة والثقافة الألمانيتين كانتا في صلب التجربة الأدبية لتورنييه الذي يوصف بالجرماني. والده كان أستاذاً للغة الألمانية، قبل أن يتخلى عن هذه المهنة وينطلق في الأعمال التجارية. عشق تورنييه للألمانية دفع به إلى دراسة الفلسفة في جامعة «توبينغن» الألمانية عشية الحرب العالمية الثانية. حصل على الإجازة قبل أن يعود أدراجه إلى فرنسا. كان حلمه الانخراط في تجربة أكاديمية في مجال الفلسفة. لكنه لم ينجح في امتحان الأساتذة مرتين. تجربة مؤلمة في حياة الكاتب الذي لم يتحل بعدها بتلك الجدية، التي قد تطبع الباحثين الأكاديميين بانضباطهم للمؤسسات فكرية كانت أم سياسية. هكذا، بعد الكثير من المتاعب، والعمل في أكثر من مهنة، استطاع دخول عالم الصحافة. كتب مقالات في جرائد مختلفة، كما قدم برنامجاً على أثير إذاعة «أوروبا 1» عن الفوتوغرافيا التي تشكل أحد التعبيرات الإبداعية الأكثر قرباً إلى قلبه. حبه للتصوير دفع به إلا تأسيس مهرجان «لقاءات آرل الفوتوغرافية» في العام 1970 وهو ربما أهم لقاء حول الصورة ينعقد سنوياً في فرنسا.

كما عمل مترجماً، وخاصة لإريك ماريا ريمارك، صاحب واحدة من أجمل الروايات الألمانية المعاصرة «فكل شيء هادئ في الميدان الغربي» التي تحكي عن جبهة من جبهات القتال خلال الحرب العالمية الأولى.

عاشق كانط الذي يعدّ من القلة القليلة التي تملك أعماله الأصلية بالألمانية، ارتبط بهذه اللغة ارتباطاً لصيقاً. وبهذه المناخات تشكلت مادة روايته الثانية «ملك جار الماء» (جائزة غونكور 1970) التي صدرت عن «دار غاليمار»، ونقلها فولكر شلوندورف إلى الشاشة الكبيرة. الرواية تستلهم عنوانها من قصيدة لغوته، لتحكي تجربة رجل يعبر أوروبا الحرب العالمية الثانية، برغباته الغريبة، وكتمه للشياطين والنزوات التي تسكن جسده، ومنها رغبته في الأطفال... وإذا كان تورنييه قد أظهر في هذه الرواية معرفته العميقة بالحضارة الجرمانية، فإنّ الرواية تميزت خصوصاً بصفاء الكتابة، ومزج الواقعية بالسحر، متخذاً من فلوبير في «ثلاث قصص» نموذجاً أدبياً يحتذى به.

بعدها، صار من الوجوه الأكثر حضوراً في الأدب الفرنسي. التحق بأكاديمية «غونكور» ليصير عضواً في لجنة تحكيمها بعد عامين من حصوله على الجائزة، وعمل كناشر لدى كبريات الدور كـ PLON، قبل أن ينسحب من عضوية «غونكور» عام 2009 بسبب «العمر، والتعب، وفقدان الشهية الأدبية». وكان تورنييه اختار منذ التسعينات القطيعة مع كل شيء. انعزل في هدأة بيته المحاط بالشجر في شوازيل، وتوقف عن الكتابة.

حياة من الملل، والابتعاد عن العالم تماماً كبطله كروزو. لكنها حياة سعيدة، أيضاً عبرت التاريخ المعاصر.

ليلى العلوي... الكاميرا كسرتها بشاعة العالم

ذهبت الفوتوغرافية ليلى العلوي (1982) إلى العاصمة البوركينابية واغادوغو لتصوّر وجوه المعذبين على الأرض، بدعوة من منظمة العفو الدولية. مرة أخرى، وضعت الفنانة المغربية الفرنسية نفسها قدماً في الفن الفوتوغرافي، كملتقطة لوجوه المهمّشين والمقصيّين في رحلات ألمهم. غير أنها التقت هناك بالوجه الأفظع للبشرية... وجهها الإرهابي، إذ سقطت برصاصه في هجوم فندق «سبلانديد» خلال تناولها العشاء في مقهى «كابوتشينو» مساء الجمعة. لم يستطع جسدها تحمل الألم والرصاصات التي اخترقته، لتفارق الحياة في المستشفى أول من أمس. ورغم تجربتها القصيرة، فقد راكمت العلوي تجربة مميزة في مجال الصورة. تجربة جعلت البورتريه حجر زاويتها. ليس فقط من خلال تتبع ملامح الوجوه فقط، بل حكاياها أيضاً ووضعها الإنساني وشروط كينونتها. تتبعت العلوي، بالضبط هذا الوضع، وممكناته لكن من دون غرق في البؤس، أو الاستشراقية والنزعة الاستعلائية تجاه «موضوعاتها». كانت كاميرا العلوي تتموضع في نفس مستوى مَن تصورهم، فتصير النظرة إلى ضيوف استديوها المتنقل بين المدن، نظرة أفقية، تعكس هذا البحث عن اللقاء بينها وبينهم، من دون أفكار نمطية.

ترعرعت العلوي بين الثقافتين الفرنسية والمغربية، لكنها عادت إلى المغرب العميق لاستكشافه من جديد. في «سوق بومية» في الأطلس المتوسط في المغرب عام 2011، أنجزت سلسلة من الصور لحيوات ومهن أشرفت على «الاندثار» أمام زحف «الحداثة»، كمهنة ساقي الماء الذي يتنقل بين الأحياء والأسواق، ويقدم ماءه البارد للعطشى. لتحقيق رغبتها في رصد الواقع المعيش، والتقاط الوجوه، انتقلت العلوي، من دون أي ادعاءات، متسلحة باستوديو متنقل، وبرغبتها الكبيرة في اللقاء بالإنسان في تعدده الاجتماعي والثقافي والإثني وتجذر التراث في بلدان تعيش «أزمة هوية». كانت العلوي تعتبر أن لأعمالها وظيفة توثيقية أيضاً تأتي إلى جانب بعدها الإبداعي الصرف. وجدت ضالتها في المناطق البعيدة التي لا تزورها عادة إلا الكاميرات الأجنبية مع مخيالها الغربي الذي يختزل البلدان في الفولكلور. في المغرب، تنقلت في المواسم والأسواق الشعبية، وتحدثت إلى الناس كما دعتهم إلى التقاط صورهم. في سلسلة صور المغاربة، فضلت العلوي التقشف. جعلت خلفية صورها سوداء، ولعبت على إضاءة خفيفة، تمكن من عكس تعدد الألوان الذي يعبر الأزياء المحلية. هذه المجموعة عرضت العام الماضي ضمن «فوتوميد» في بيروت، حيث عاشت لفترة متنقلة بينها وبين المغرب. خلال تجربتها القصيرة، استطاعت أن تقدم عبر الفوتوغرافيا، لمحة عن الذين لا تهتم بهم الكاميرات كثيراً. انشغال رافقها في أعمال أخرى، يظل أبرزها تجهيز فيديو اتبعت فيه مسارات المهاجرين السريين من دول جنوب الصحراء. التجهيز الذي يحمل عنوان «عبور» قدم في العديد من المعارض الدولية، آخرها «معهد العالم العربي» في باريس، حيث لا يزال يعرض حالياً. يستقرئ عمل الفيديو واقع رحلة المنفى، التي يعيشها «الحَرَّاقَة» (المهاجرون السريون) للوصول إلى الضفة الأخرى من المتوسط. التقت الفنانة هؤلاء طيلة أشهر، وسجلت شهاداتهم، قبل أن تعمل عليها فنياً من خلال الفيديو، مقدمة كلامهم، وحكايا عبورهم المؤلم بشكل ينزاح أحياناً نحو الجمالية، برغم قسوة الكلام. ترى الفنانة أنّ الجانب التشكيلي في العمل يخرج هذا الواقع المأسوي، من قالب الشهادات التلفزيونية التي تتكرر وتلخص المهاجر في أرقام، لتعطيه أفقاً تعبيرياً آخر.

حملت ليلى الهم الإنساني في أكثر من عمل، إذ رافقت رحلة اللاجئين السوريين في لبنان (عام 2013)، في مجموعة «ناطرين»، وكذلك سلسلة NO PASARA التي جاءت كرد على السياسات الأوروبية المتشددة تجاه المهاجرين المغاربة. انشغالات المصورة التي كانت تقيم بين نيويورك والمغرب لم تقتصر على المهمشين والتعدد الثقافي، بل عملت أيضاً على الفنانين والمبدعين المغاربة. أصدرت كتاباً تضمن بورتريهات لحوالى خمسين فناناً ومخرجاً وتشكيلياً مغربياً. وهي البورتريهات التي تشكل لا محالة، محاولة في حفظ الذاكرة الثقافية للبلد. درست العلوي الفوتوغرافيا في جامعة «نيويورك سيتي»، وعرضت أعمالها منذ عام 2009. خاضت تجارب عدة في السينما والتصوير، إذ عملت إلى جانب مشاهير كالأميركي سبايك لي، والإيرانية شيرين نشأت، ومصمم الديكور الفرنسي سيرج لوتنز، الذي قدم كتاب بورتريهات المبدعين المغاربة. وقد بدأت مغامرتها الفنية مع التصوير عام 2006، حين أقدمت على السفر بين دول أميركا اللاتينية من أجل التقاط صور عن حضارة المايا. بعدها، حصلت على منحة من «الاتحاد الأوروبي»، قبل أن تنطلق في تجربتها للبحث عن جزء من تاريخ المغرب وحاضره. جزء يتبدد من دون أن ينظر إليه أحد. لكن مع رحيلها، يفقد المغرب واحدة من التجارب الشابة التي كانت تعد بالكثير في سماء الفن المغربي المعاصر...

محمد ...